الاتجاهات الحديثة في الادب العربي

الشعر

بقلم يوسف غصوب

نبدأ باقرار نقطة جوهرية . وهي أن الشاعر ، إبان الهامه او تقبله الوحي ، لا يكون في حالة عادية طبيعية يُحسّ فيها ويَعقل ، كما يُحسّ ويعقل سائر الناس ، بل في حالة مبهمة مُظلمة لا يستطيع ان يحدّها ، ولا ان يميز شيئاً من عناصرها . وإنْ أدرك ، فلا يُدركُ منها الا أنها كانت هدوءا ، وسكينةً ، وغبطةً عُلوية ، اتحدت فيها نفسُه بكُنه الاشياء ، واتصلت بالروح، ناسية قواها الواعية من عَقل و إرادة وعاطفة وخيال.

وما هذه الحالة الاستثنائية مما اختصّ به الشاعر دون سواه ، فهي مشاعٌ بين جميع الناس يتمتعون بها على درجات متفاوتة . وما من احد ، مهما بخلت عليه الطبيعة ، الا وذاقها في حياته . فلو سائل كلّ منا نفسه لعاد منها بجواب يؤيد ما قدمنا.

كم من مرّة نقف امام تمثال ، او صورة ، او بناء ، فنعجبُ به ، ونؤخذ بجماله ، فتشرُد افكارنا ، ونظل امامه مشدوهين ، يَغيب عنا من دونه كل شيء . سَلُوا المحبين أما اتّفق لهم أن خَفِيَ عنهم احباؤهم ، وهم جُلوسٌ لديهم ، وهم موضوعُ حبهم ، لانفلاتهم ، تحت تأثر عاطفتهم ، الى عالم الحب الاسمى ؟ ذلك لان في صدر كل امرئٍ حنيناً الى حياة أخرى ، الى فردوس مفقود ، كلما سنحت له فرصةٌ هاج ، وملأ القلب صلاةً.

هذه الحالة الشعرية تعرض عَرَضاً للناس في مواقفَ وظروفٍ نادرة . اما الشاعر فيكاد يَقسِمُ حياتَه بينها وبين الحالة الطبيعية : كلّ حادث مؤثر ،

كلّ منظر غريب ، كلّ جمال بارع ، يوقظ فيه نفسه الباطنة ، فيتلاشى امامها كلّ شيء .

ففي الانسان ، اذن ، حالتان مختلفتان : حـالة تسود فيها القوى الواعية من عقـل ، وإرادة ، وعاطفة ، وخيال ، فيسوس فيها المرء اعماله ، ويتعاطى وامثاله فيتفاهمون ويتناقشون ويقيسون على مقاييسَ وقواعدَ مسنونة ، ويُحكِمون المنطق والعلوم والفلسفة . وحالةٌ أخرى لا عَمَل البتة فيها لهـذه القوى ، بل ترتع فيها النفس الباطنةُ مغمورة بالسكون والغبطة .

أرى أنّ الانسان ، في اول عهده ، كان أقربَ الى هـذه الحالة الاخيرة ـــ الحـالة الشعرية ـــ منه اليها الآن . فالديانات ، على اختلافها ، تُخبرنا عن اتصال الآلهة بالبشر ، وعما كان يجري بينهم من حِوار . وقد تكون هـذه الاخبار رمزيـة ، غير أنها تَدُلُّ دلالة واضحة على سَذاجة تلك العصور ، وعلى تَغلُّب النفس فيها على كبرياء العقل وجُموح العاطفة . ثم اخذت هذه الحال تتغيرُ قليلًا فقليلًا بعد ان نفثت الحية في قلب الانسان سُمَّ المعرفة وأغرته بها . فبدأ العقلُ ـــ منذ ذلك الحين ـــ يَبعد عن مَصدره ، عن نفسه الباطنة . وراحت تتراكم ما بينه وبينها الحواجز حتى أصبح من الصعب اجتماعهما وائتلافهما . على أن الشاعر هو الشذوذ في هذه القاعدة ، هو الرجل الشريد الغريب في هـذا العالم ، عالم العقل والمـادة ، ولذا تراه قريباً من نفسه يأوي اليهـا ويسمع اناشيدها ، ويأتينا منها بنفحات ما لنا عهد بها ، فننفر ، ونمانعُ ، ونستغرب ، ثم ننقاد طائعين .

والشاعرُ ! ! ما كان الشاعرُ أنانياً فيحتفظَ لنفسه بالهبة التي تلقاها من الله ، فتراه ـــ رغمَ تعرضـه في بعض الاحايين للهُزء والشفقة ـــ يَطلع على الناس باناشيده الغامضة ، ويكلمهم بالفاظه المبهمة الغريبة ، ويؤدي رسالته أميناً . ومنهم من يَضحك ، ومنهم من يسخر ، ومنهم من يقول : دعوه ، إنـه لمجنون ! دعوه ، إنّ فيه لشيطاناً ! ومنهم من يتهيب روعتـه ويُحسّ فيه قوة غريبةً فيقول :

إن الآلهة تتكلم بلسانه .

وهو، على كل حال، غريب على الارض، يتعثر باذيال عبقريته:

Ses ailes de géant l'empêchent de marcher. (١)

* * *

لما ألف افلاطون جمهوريّته، لم يجد للشاعر فيها محلًا. فالشاعر، في رأي افلاطون، لا يصلح لشيء، وليس فيه من نفع للهيئة البشرية. كلامُه يُخالف الاحكام المنطقية، والفاظه لا تدلّ على معانيها! فما يَصنع منه؟! أيَصنع منه وزيرًا، ام معلّمًا. لا. لا. بل ينفيه، لانه خطر على المدينة. فنفاه. وراح الشاعر ينفض ثيابه تاركًا منفاه الى موطنه!

اما العربُ فما اتبعوا، لسوء الحظ، خطة افلاطون في شأنه. بل عدلوا الى طريقة كانت وبالًا عليه: جاؤوه، وهو بين الكُهّان والسحرة، يتلو عليهم من آياته، ويُطربهم باغانيه، ويقصّ احاديثه مع الآلهة والجن، ويُخبر بسحر الصحراء في الليالي القمراء، وبأنغام الرياح بين تلال الرمال، وبنجوى النجوم في زرقة السماء. والكهنة والسحرة مُحدقون اليه، يرشفون كلامه ويسكرون بخمرته، جاؤوه وقالوا له: دَعْ عنك هذا. انْ أنت الا في ضلال مبين. أتترُكُ «القبيلة» لتعيش منفردًا شريدًا. قُمْ الينا. إنا لنرى لك لسانًا ذَلِقًا، وفمًا أشدقَ، ونسمعُ صوتًا جهيرًا، وكلامًا بليغًا. قُمْ فقد اعددنا لك في القبيلة منصبًا خطيرًا، تكون فيها للامير وزيرًا. تُدافع بلسانك عنها، وعن اعراضها، وعن حقوقها، وتهجو اعداءها، وتُثير النشاط في رجالها... الخ

فنشب صراع عنيف بين نفس الشاعر وعقله كانت الغلبةُ فيه لهذا العقل الدعيّ. فودّع الشاعرُ مَلاكه، وشيطانه، والكهنةَ، والسحرة، وأعتلى جوادًا، وتقلّد سيفًا، وتقلّ رُمحًا، وأصبح خطيبًا بعد ان كان شاعرًا...

فنظم مُعلقة الحارثِ بن حِلزة، ومعلّقة عَمرو بن كُلثوم. ودعم براهينه الخطابية بالامثال والحِكَم، فقال: مَنْ ومَنْ ومَنْ(٢). وغالى في الفخر والهجاء.

١) بودلير ٢) اشارة الى معلقة زهير بن ابي سلمى

أما الشعر فخلّفهُ بين الشياطين والجن ، بين السحرة والكهنة.

وولّت عصور الجاهلية . وقامت دولة بني أمية . وتكاثرت الاحزاب والنزعات . وانقسمت المملكة ، الى حينٍ ، بعضها على بعض . واضطر زُعماؤها الى الالتجاء الى من يُصلِتُ لسانه للدفاع عن سياستهم — ولم يكن اذ ذاك من جرائد — فوقع اختيارهم على الشاعر فقالوا له : دافع عنا بلسانك . سيِّر قصائدك بالإشادة بحقنا في الملك ، واحمل الحملاتِ الثقال على خصومنا فيكونَ لك عندنا المقام الارفع . فقال لهم ، ولم يتردد : انا لها . واصبح الشاعر صُحفياً خبيرًا باساليب السياسة ومداخلها ومخارجها ، يرفع هذا ، ويحط ذاك ، ويفتش عن نقائص زَيْدٍ فيُذيعها ، وعن صنائع عمروٍ فينشرُها ، ويتهاجى والشعراء فينظم « نقائض جرير والفرزدق » ، ويلاقي اكراماً وحظوة ، ويُصفّق له السامعون ويهللون . فيدخل في رَوْعه أنه اشعرُ الشعراء . هذا ونفسُه تئنّ وحيدةً في منفاها ، تُحاول ان تغني ولا تستطيعُ الا نادرًا.

واستتب امرُ الدولة . وتبدد مُناوئوها ، وخلص لها الحُكم . فتقلّصت الاعاناتِ عن « الصُحُف » . فبات الشعراء ولا عمل ، ولا مورد لهم . وكانوا قد تعوّدوا بعض الزُلفى ، ابان اتصالهم بالخلفاء والامراء والحكام ، فقالوا في نفوسهم : إننا نُحسن هذا المنهجَ من مناهج العيش ، فلو سرنا فيه لدرَّ علينا الخير الكثير . واجمعوا رأيهم على المدح ، وراحوا يقصدون القصائد ، يحملونها من باب الى باب ، يَمدّون ايديَهم ولا نأنف ان نقول : يستجدون ، ولا إباء ، ولا عِزّة نفس . وأيّ شأنٍ للشعر في هذه السوق التي لا ينفق فيها الّا المبالغة ، والكَذِب ، والاغراب ، والرياء . لا يفوز فيها الا مَن أجاد الحيلة في وضع الخطط الخادعة لإنداء الاكف اليابسة . اما الصدق ، اما الوحي ، فلا تسل عنهما . فهما بعيدان جِدّ بَعيدين عن هذه المباءة الخبيثة.

لم يكن رائدُ هذا الشعر — اذا جاز ان نسميه شعرًا — الا الحاجةَ والطمعَ ، تفتتن فيه الناظم ما شاء لبلوغ غايته . فينزُ اريحية العظماء بحشده في مدائحهم افضلَ ما يكون من الصفات ، وبنسبته اليهم أغربَ الاعمال وابعدها عن الحقيقة . فقال احدهم في هذا الشعر : أحسن الشعر اكذبه . ولما نضب معين

الناظم وتَنَدت موزونته من قديم وحديث ، عَمَد الى شيء بدعة في الشعر ، الا وهو البَديع . وما ادراك ما البديع ! مُداعبات صبيانية بهلوانية يتلهى بها من لا مـادّة عندَه ولا حياة ، فيجعل الاجادةَ كلَّ الاجادة في المجانسة والمطابقة والتصدير والتوشيع الخ.

لم يقف تدهورُ الشعر عند هذا الحد. بل تابع انحدارَه صبباً، فسُخّر لشؤون ليس له فيها (ناقة ولا جمل) : كلّفوهُ نظم العلوم من صرف ، ونحو، وطب ؛ وذلّلوه على المنطق والفلسفة ، وهو ابعد شيء عن المنطق والفلسفة. فكان يلبي طلب كل طالب ، وينزل عند رغبة كل راغب ؛ حتى انهم حمّلوه طائعاً على التشطير والتخميس والتسميط، ولا عجب، فلم يكن في هذا الشعر قوة تُدافع عن كيانه وتصدّ عنه هجمات الطفيليات الخانقة.

وقد يتصوّر البعض أنّ هذا آخرُ ما تدنّى اليه الشعر العربي . لا . فهناك نظمُ التواريخ ، وهنـاك القصائد الرَقطاء ، والقصائد العاطلـة ، والقصائد الخيفاء. . . وهناك الابياتُ التي تُقرأ طردًا وعكساً وتبقى على لفظها . وهناك الالغاز والاحاجي . وهناك سخافات لا تعدّ ولا تحصى.

وهذا ما حمل بعضهم على القول : إن الشعر تمارينُ صبيانية إذا جـاز ان يتلهى بهـا الاولاد الصغار لحفظ بعض الالفاظ فلا يجوزُ لهم — اذا بلغوا — ان يظلّوا على ممارسته ، بل عليهم الاخذُ بالاعمال الرزينة.

واذا اضفنا الى مظاهر هذا التطوّر بعض قصائدَ في الغزل والنسيب — لا في الحب — وبعض الخمريات، والطّرديات، فنكونُ قد المننا بمجمل هذا الفن.

* * *

معاذَ الله أن نقول : إن الآثار العربية تخلو جميعها من الشعر كما نفهمه او كما يجب ان يُفهم . فهنالك طائفة كبيرة منه متوزعة على جميع العصور ، فيها النفحةُ الشعرية الخالصة كما سنرى. غير أنّ ذلك لا يمنع أن تكونَ الصبغةُ الشائعـة في الشعر العربي صبغةً خطابية منبرية علمية مما لا يتفق مع الشعر الحقيقي . فهل انتبهَ أئمة النقد عند العرب الى هذه النقطة الهامة ؟ وهـل

حاولوا ان يردُّوا الشعر الى الصراط القويم ؟ !

جاء اصحاب القواعد والقوانين في مختلف العصور ، حاملين مقاييسهم وبركاراتهم ، وتنطّعوا وقالوا : ايها الشعراء . هذي هي القاعدة قد وضعناها لكم فلا تتعدوها . فمن حاد عنها ، او اخلّ بحرف من حروفها ، نفيناه من زمرة الشعراء . وما هي هذه القاعدة يا ترى ؟

سمع العرب أن ارسطو وضع اصولاً للشعر فنقلوها — واي نقل ! — الى العربية . وقام ابن رُشد فلخّصها . وقد حاولتُ ان أفهم من تلخيصه شيئاً فما استطعت . ولكن ، على كل حال ، ما خسر العرب كبير امرٍ في عدم الاخذ بها والتقيد باحكامها . فهي من وضع المنطق المتكبّر . والمنطقُ والشعر على طرفي نقيض .

قال العروضيون في تحديد الشعر : هو الكلام الموزون المقفى . وقال ابنُ خلدون : انما صناعة الشعر بالالفاظ لا بالمعاني . وإن هذا التحديدَ الاخر لَلْعمر يوهمنا أنّ ابن خلدون قد ادرك شيئاً من كُنه الشعر . ولكنه — لسوء الحظ — لم يتعد الا الى أنّ المعاني هي في متناول جميع الناس وما الشعر الا بتنظيمها وسبكها في لفظ بليغ او فخم او سهلٍ وفقاً لمقتضى الحال . كما سبقه الى ذلك الجاحظ حيث قال : « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العَجمي والعربي والبدوي والقروي . وإنما الشأن في اقامة الوزن وتميّز اللفظ وسهولة المخرج » .

وقال الجاحظ — ايضاً — قولاً يَدلّ على إدعاء العرب بانهم اشعر الناس ، وأنّ لا شعر الا في العربية ، ولذلك لم يأبهوا لما عندَ غيرهم من الامم ولم يُوبهم الحرصُ الى الاطلاع على رأي الشعوب في هذا الذي نسميه شعراً . قال الجاحظ : « وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب » .

ومع هذا ، فقد تنبه الجاحظ الى امر ذي بال ، أمرٍ عظيمٍ جداً . وعندي أنّ الجاحظ كان يَشعرُ في اعماق نفسه بهذا الذي ندعوه الآن بالشيء الذي لا يُحدّ (Ineffable) ، ولكنه لم يتوفق الى الاعراب عنه . قال : « والشعر لا لا يُستطاع أنْ يُترجمَ ولا يجوز عليه النقل . ومتى حُوّل . . . ذهب حسنه وسقط

موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور ».

وموضع التعجب في الشعر هو الشعرُ نفسُه ، هو ذلك الشيء الـذي لا يمكن وصفه ولا حده.

اما امكان ترجمة الشعر فقد جعلها احد المعاصرين — ولا اذكر اسمه — شرطاً اساسياً من شروط الشعر الجيد فقال : ان ميزان الشعر هو امكان نقله الى لغة اجنبية مع بقائه على معانيه ، ولذلك فالمتنبي ليس بالشاعر اذ من الصعب نقل شعره الى الفرنسية مثلاً مع محافظته على قيمته وروعته.

وهذا هو السخف بعينه.

وجعلوا الشعر علماً فقالوا : « الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء » (الجرجاني) وقالوا ايضاً : « الشعر ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة والتشبيه الواقع وما سوى ذلك فانما لقائله فضل الوزن ».

وقس على ذلك تحاديد كثيرة للشعر التَفَتَ فيها اصحابُها الى القشور ، ولم يلتفتوا الى الألباب . وأرى أن العرب لم يُحسنوا في هذا الصدد الا بتسمية الشعر «شِعراً». فهذه اللفظة ادلّ عليه من جميع ما اوردوه من تحاديد سطحية لا تُفيد ماهيةَ الشعر ولا جوهره.

ولما انتهى النقدة من التحاديد ، حَذَوا الى سن القوانين ، فقالوا: اصنعوا كذا ، ولا تصنعوا كذا . واختلفوا في الامر فمنهم من أوجب اتبـاعَ القديم في خططه وطُرُقـه في مطالع القصائد من ذكر الاطلال ، ووصف الجمال ، والتشبيب والنسيب ، ومنهم من اجـاز الابتداء بالحِكَم ، ومنهم من تساهل حتى قال : لا بأس من الابتداء بالموضوع تواً. ثم قالوا يجب في المدح كذا ، وفي الرثاء كذا ، وفي الهجاء كذا ، وقـال ابن رشيق من قصيدة في اصول الشعر :

فاذا ما مدحتَ . . .
واذا ما قرنته بهجاء . . .
واذا ما بكيت . . .
ثم ان كنت عاتباً . . .

فحصر الشعر في هذه الابواب . ثم قال كيفَ يجب الجريُ فيها . وتفاقمَ الامر بين مَن حلّل ومَن حرّم ، فتعالت الضجة بين اصحاب القــديم واصحاب الحــديث ، فادلى كل واحدٍ منهم بحجة تدعم رأيه ، وظل الجدل قائمًا حتى ايامنا هذه ولا اراه ينتهي.

على أن الشعر الشعر فتيّ ابدًا ، لا هو بالقديم، ولا هو بالحديث لا يؤثر فيه زمن ولا مكان ، ولا يبوخ بمرور الايام ، فتراه كلما أُنشد كان لــه وقعُه وكان له سحره. انما الذي يبوخ ويبهت هو النظم الذي يروق في زمن ــ لزيّ في الادب ــ ثم يذهب بذهاب ذلك الزي.

واقبل الشرّاح على الدواوين ، فاخذوا يُفسّرون غامضها ، ويجلون مشاكلها اللغوية والبيانية ، ويظهرون مــا فيها من المعاني الغريبة والتشابيه العجيبة ، ويُشيدون بما فيها من فصاحة وبلاغة ، وما في قوافيها من قوة ورسوخ . ثم فتشوا عما سُبق اليه من المعاني ، وعما كان مبتكرًا ، وعما سُرق ، وعما حسُن فيه بعد سرقته ، وعن الصياغة والديباجة ، وعن سموّ الخيال ورقة العاطفة . فتشوا عن كل شيء في الدواوين . اما الشعرُ فلم يفتشوا عنه.

فتشوا عن اشياء كثيرة يشترك فيها النثر والشعر ، وربما استغنى الشعر عنها، اذ هو مستقلّ كل الاستقلال عن صاحبه. فاذا دخله من عناصر النثر شيء فإنما يكون ذلك تطفلًا من هذا الدخيل الوقح.

* * *

هذا هو الشعرُ عند العرب . ألقينا عليه نظرة سريعة إجمالية . فبقي علينا ان نقول كلمة في الشعر ، كما نفهمه الآن.

ليس ما أحدث عنه بالبدعة الجديدة . إن هو الا صدى آراء شائعة في عالم الشعر ، لا يختلف اهل النقد والعلم فيها الا على بعض تفاصيلها ، لا على اساسها . ومع هذا نرى في لبنان ، في هذا البلد الشعري ، من يصعب عليه هضم هذه المبادئ الاولية ويُغمض عينيه عن جلائها ؛ فيظل سائرًا ، في أدبه ، على ضوء التقاليد لا يحيد عنها ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة.

النظريات في الشعر متعددة . وكلها حديثة لا يرجع القديم منها الى ابعد من مئة سنة . وكلها اجمعت على أن في الشعر شيئاً لا يمكن تحديده يجعل الشعر شعراً . فمنهم من ينسب هذا الشيء الى الموسيقى ، والى اتقان الصياغة والمعرفة بمخارج الاصوات وتلاؤمها او تنافرها واختلافها ، وبتجريد الالفاظ من المعاني والصور حتى تبقى عبارية لا توحي الى القلب عاطفة ، ولا الى العقل فكراً ؛ بل تجعل الاثنين في دهشة وغموض وابهام وحالة موسيقية تسمع فيها أنغام آتية من بعيد،من اعماق اللانهاية لم تألفها الآذان ولا القلوب.

ومنهم من يردّ الشعر بجملته الى النفس الباطنة ويقول : إنه صلاة النفس في وحشتها . إنه نغمة من نغمات الفلك الدائر ، نفحة من نفحات الحب الشامل.

وعلى كلا الحالين ، لا بدّ للشعر من الوحي والإلهام ومن حالة لاواعية (على حدّ قول صديقنا سعيد عقل) تفقد فيها القوى العاقلة الواعية كل سيطرتها ، ويرتع فيها الوجدان ، او النفس الباطنة ، في غبطة لا نحدّها ولا ندركها انا نحسّها حساً عميقاً .

يهبط الوحي على قلب الشاعر فيشعر بارتياح عظيم ، وهدوء غريب ، وتطمئن نفسه إذ يرى،في لمحة،العمل الذي ينويه تاماً ناجزاً ، لا يتبيّنه بتفاصيله وحدوده انما هو ماثل امامه متشح بظلام نيّر — اذا صحّ التعبير — فيثق بكيانه وبتحقيقه.

لا يصنع الشاعر في حالة الوحي شيئاً ، ولا يُملي عليه الوحي شيئاً ، ولا يزيده معارف على معارفه ؛ ولا يرافقه أبدَ الدهر ، ليُنجز ما شرع به . بل يكون هذا الوحي الشرارة الاولى التي تنير الطريق ، النغمة الاولى ، الشطرة الاولى من القصيدة.

قال ڤاليري: « تُعطينا الالهة مجاناً البيت الاول من القصيدة. » وقد يكون في هذا البيت الجرثومة التي تتولد القصيدة منها ، كما تكون السُنبلة باجمها في القمحة التي تلقى في الارض.

وزيادةً في الايضاح ، اقول : إن النحت ، وهو كالشعر ، يتطلب الوحي. فان لم يكن النحات ملهماً ، كانت تماثيله كالحجارة لا قيمة لها . ومن التماثيل ما

يحار العقل به ، وتخشع النفس له ، يغمره السحر وتطفو عليه الروعة والجلالة. فهل يُعقل ان النحات ظــلّ في الحالة الشعريّة طوال المدة التي قضاها في صنع التمثال.

قال هنري برغسون في بعض ابحاثه : « ليس الرجلُ الدقيقةَ التي هو فيها ، بــل هو الدقيقةُ التي قبلها ، او التي تليها . » فهو ذكرى او امل . ولذلك ليس من المستغرب ان لا يشعر المرء بالحالة الشعرية اثناء وجوده فيها .

الوحي ذخيرة او نور داخلي ، يستقرّ في النفس الباطنــة ، ويشيع في الاثر الذي نأتيه ، وان نكن نصنع ذلك ونحن في حالتنا الطبيعية .

يعود الشاعر من غيبوبته ، وهو قريب عهد بالحب والجمال المطلقين ، مشبعٌ منهما ، فيرى الاشياء عــلى غير ما تبدو ويريدها افضل مما هي عليه ، واقربَ الى المُثُلُ العليا التي يُحسها في وجدانه . ويحاول ان يؤدّي رسالته . ومــا من وسيلة لــديه الا هذه الالفاظ البائخة ، وهذه الجمل البالية ، فيُشرق عليها من نور الهــامه ، من القبس الذي قبسه من النور الالهي ، فيخلقها خلقاً جديداً . فتدبّ فيهــا الحياة ، وتُدوّي في القلب دوياً غريباً . فشأنه معها شأن الشمس تلثم الخِرقــة البالية فتجعل منها علماً ، كما قــال الشاعر روستان . على ان هــذه الالفاظ ـــ على تزاوج معانيها في القصيدة : المعنى الاصلي والمعنى الذي يعطيها اياه الشــاعر ـــ وعلى جزالتها او فخامتها ، او سهولتها ، او موسيقاها ، لا تكفي وحدها لارضاء نفس الشاعر ، فتراه يتخذ منها جملاً يصوغها صياغة غريبة ، يتلاعب فيها بين تقديم وتأخير ، وحذف واضافة ، وتشابك وتباعد ، وفصل ووصل ، وجعل هذه الكلمةِ صدًى لكلمة أخرى ، وممـازجةٍ بين حرف وحرف ، وتجاوبٍ في الانغام بين الصدور والاعجاز مما حمل بعضهم على القول : « ان الشعر في التعبير » . ولكن مهما جــاد التعبير والصياغة فان لم يكن في البيت روحٌ فلا يكون البيت شعراً .

خذ مثلاً هذا المطلع من قصيدة مشهورة للمتنبي :

عــلى قدر اهل العزم تأتي العزائم ، وتأتي على قدر الكرام المكارمُ !

فانه ، وان يكن جزل اللفظ ، سهل النطق ، متوازي الشطرين ، متهادي

النثر ، فليس هو من الشعر في شيء . ان هو الا مقدمة لعظة او لخطبة .

اما اذا كان الشعر ملهماً ، فالانسجام والجزالة وروعة اللفظ تزيده جمالاً على جمال ، وتكون فيه اشعاعاً يتصل نوره بقلب السامع ، فيبعث فيه تلك « القشعريرة » العذبة التي احسها العرب ولم يعرفوا مصدرها .

لا تنتهي مهمة الشاعر بانتقاء الفاظه ، وترتيب جمله . فهناك مهمة اشق . الا وهي البناء . فالقصيدة وحدة قائمة بنفسها منفصلة عما سواها ، تامة الخلق ، لا زيادة فيها ولا نقصان . هي صورة في إطار ، امرأة حسناء متناسبة الاعضاء ، اقل شيء ليس منها يذهب من حسنها ويغيرها . هي هيكل في صعيد من الارض ، او على ربوة ، تراه جملة فيروعك جلاله واتساقه ، ولا تنتبه ، لاول وهلة ، لما فيه من دقيق الصنع ولما استعمل فيه من مواد بين ثمين وخسيس ، بين مرمر وطين ، بين ذهب وحديد . فهو امامك مالىء عينيك ، مستولٍ على لبك ، لا تدرك — الا بعد الروية — كم تعنى المهندس في بنائه من ليالٍ ساهرة ، وكم سائل الآلهة ، وكم تضرع لها ، وكم جلس امام ورقته البيضاء يبكي ويصلي .

انت لا تدري كم هناك من مواد مختلفة جمعها من اقطار العالم من بطون الارض ، من اعماق البحار ، واختار لكلٍ منها مكانه ونشر فيها روحه ، فاذا هي تفرد في الوان الهيكل واشكاله وخطوطه واجوائه .

قلت : إن الالهام لا يزيد في غنى الشاعر . بل يزيد في قيمة غناه ، اي في ما لديه من مادة . وهذه المادة تتجمع في صدر الشاعر من مصادر مختلفة ، تتراكم وتتوافر يوماً فيوماً من حيث يدري ولا يدري : تأتيه من قراآته ، من حياته ، مما يحف به من مناظر ومشاهد ، من ظلمات الغيب ، من خلفات الدهور السالفة ، من آبائه الأولين فتصطبغ بصبغة خاصة هي صبغة الشاعر الشخصية ، صبغة وراثته ، صبغة بلاده . الميسم الذي يتميز به عن سائر الشعراء ، على امتزاج شعره بالشعر الانساني ، بالشعر العالمي . هذا الميسم هو له كالاريج في الزهرة . كل الازهار العاطرة لها اريج . انما للوردة أريج ، وللزنبقة اريج ، وللبنفسجة اريج .

ولا بدّ ان تلجأ النفس الباطنة — اذا ارادت البناء — الى قواها العاقلة فتُسخر الفكر والعاطفة والخيال. لا تترك لهذه القوى الحبل على الغارب فتصنعَ ما تشاء. بل ان هذه القوى تبني — اذا امكن القول — تحت رقابتها، ولا ترضى النفس عن البناء. ألا اذا جاءَ كما تُحِسّه في اعماقها، وكما رأته ابان الهامها. اما اذا تُرِكَ العقل وشأنه، فيأتي بالعجب العُجاب، ويَرجع الى عُنجُهيته، ومَنطقه، ومقاييسه، واحكامه، فيتضاءَل الشعر وتظهر البلاغة والخَطابة. حتى اذا تلا العقلُ نظيمه في جماعة من العقول صفّقت له، لانها عرفت في قوله وافكاره قولها وافكارها، فتصفيقها انما هو رجع صَداها. اما النفس فتبقى صامتة منكمشة على ذاتها حزينة في منفاها.

هذا ولا بدّ للقصيدة من الغِناء. لا بدّ لها من موسيقي تكون الموجة الكهربائية التي توصل المجرى الشعري الى قلب السامع او القارئ. وهذه الموسيقى على نوعين: الموسيقى الخارجية، والموسيقى الداخلية. فالخارجية منها قِوامها اللفظ والوزن ومدى النفس والجناس، وتجاوبُ الاصداء، وحروف المدّ، واللين، وغير ذلك كثيرٌ من اسرار لا تقع تحت حصر ولا قاعدة. فالشاعر الشاعر تأتيه عفوًا دون تعمد.

وهذه الموسيقى اسهل ما تكون في الاوزان العربية. لان التفاعيل هي، بحدّ نفسها، موسيقية. فاذا استقام الوزن كان ولا بدّ فيه شيء من الموسيقى. على انها مع ذلك تختلف عند مختلف الشعراء، بل في ابيات القصيدة الواحدة. فمن موسيقى بسيطة قائمة باستقامة الوزن الى موسيقى مطربة فيها من الفن شيء كثير. خذ مثلًا قول الحارث ابن حلزة

اجمعوا امرهم عشاءً، فلما اصبحوا، اصبحت لهم ضوضاءُ:
من منادٍ، ومن مجيب، ومن تَصهال خيلٍ، خلالَ ذاك رُغاءُ.

او قول المتنبي:

بناها فاعلى، والقنا يَقرع القنا، وموجُ المنايا حولها متلاطمُ،
وكان بها مثل الجنون، فاصبحت، ومن جثث القتلى عليها تمائمُ.

او قول البُحتري:

والمنايا موائل ، وانو شروان يُزجي الصفوف ، تحت الدرفس

او هذا البيت :

اخذنا باطراف الاحاديث بيننا ، وسالت باعناق المطيّ الاباطحُ .

وغير هذا كثيرٌ . فان الشعر العربي غنيّ جداً بهذا النوع . على ان هذه الموسيقى ، على ما فيها من جمال ، لا تكفي لان تجعل الشعر شعراً حقيقياً . فهناك الموسيقى الداخلية ، موسيقى النفس التي تشيع في القصيدة فتنشر فيها السحر ، وتغمرها باجواء عُلوية تنفتح لها الصدور ، فيؤدّي بها الشاعر رسالته ، ويرفع القلوب ، وينتقل بها من عالمها المادي الى عالم اصفى واسمى.

وقائل يقول : هل في الشعر العربي مثلُ هذه الموسيقى . اجل ، في الشعر العربي قطع متفرّقة . ولكنها ، لسوء الحظ ، قليلة بالنسبة لكثرة الدواوين وطول الزمن.

ومن هذا الشعر ابيات للمتنبي :

عيدٌ ، بأية حال عُدت ، يا عيدُ ؟ لما مضى ، ام لأمر فيك تجديد ؟
اما الاحبة فالبيداء دونهم ، فليت دونك بيداً دونها بيد !
يا ساقيّ ، أخمرٌ في كؤوسكما ؟ ام في كؤوسكما همٌ وتسهيدُ ؟
أصخرة انا ؟ ما لي لا تحرّكني هذي المُدام، ولا هذي الاغاريد ؟
اذا اردت كميت اللون صافيةً ، وجدتها ، وحبيب النفس مفقود !

انك تسمع النغم الداخلي يتردد في هذه الابيات . فتارة يعلو ، وتارةً يخفُت حتى يكاد يتلاشى ، ثم ينبعث كئيباً موحشاً . وما بك من حاجة الى فهم الفاظه لتتأثر به ، فاللحن منتشر فوق الالفاظ ، يوشك ان يُخفيها . فانت لا تسمع الا حنيناً وشوقاً.

وهناك ابيات لرجل هو ابعد الشعراء عن الشعر ، الا وهو ابو العلاء المعري ، فاسمعه يقول :

غيرُ مجدٍ ، في ملتي واعتقادي ، نوحُ باكٍ ، ولا ترنُّمُ شادِ
وشبيهٌ صوتُ النعيِّ ، اذا قيس ، بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة ، ام غنّت ، على فرعِ غصنها المياد ؟
صاحِ ، هذي قبورُنا تملأُ الرحبَ ! فاين القبور من عهد عاد ؟

خففِ الوطء . . . ما أظنُّ أديمَ الارض الا من هذه الاجساد
سِرْ ان اسطعتَ في الهواء رويدًا لا اختيالًا على رفات العباد
ربَّ لحدٍ قد صارَ لحدًا مرارًا ، ضاحكٍ من تزاحم الاضداد !

هذه الابيات هي مناجاة بين الشاعر ونفسه ؛ انما رفعَ بها الصوت ، فسمعناها . وهو لا يريد توجيه الكلام لأحد من البشر ، بل يحاور نفسه ويخاطبها ولا يتعمد (على غير عادته) فلسفةً ، ولا حكمة ، فهو فيما نسميه « الحلُمْ في اليقظة » .

فلو اخذنا بعض المطالع من قصائد الرثاء وقابلناها بهذه الابيات لبان الفرق بين شعرٍ وشعر .

هذا مَطلعٌ مشهور :

كذا ! فليجلَّ الخطبُ او يفدحِ الامرُ ! وليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر .

او :

علوٌّ في الحياة وفي الممات ! لعمري تلك إحدى المُعجزات

او :

يا أختَ خيرِ أخٍ ، يا بنت خير أب ، كناية بهما عن اشرف النسب

فما ابعدَ هذا عن الشعر الحقيقي ، انه ليُشَمّ فيه رائحة الخُطَب ، وتلفيق الكلام ، والصياغة الفارغة .

ومن الشعر الذي يسمع له جرس داخلي ابياتٌ عديدة من قصيدة لشوقي يقول في مطلعها :

إختلافُ النهار والليل يُنسي ! اذكرا لي الصبا ، وايامَ أُنسي

ومن ذلك قصيدة ابن الرومي « دار البطيخ » ، اغاظ اسم خير مسمى ، ومطلعُها :

اجتنت لك الوجدَ اغصان وكثبان .

ومن ذلك ايضاً ابيات كثيرة لخليل مطران منها :

دَعُونيَ اسمو السمو ، غير منفّرٍ عن الورد منها نفرة الطائر الخاسي :
فربّة كأسٍ عن تناهي رَدَدْتُها ، وقد قتل الدمعَ السُلافةَ في الكأسِ :

وفي الشعر العربي شطرات او ابيات من الشعر الخالص الصرف الذي لا

يُعرف سرّ جماله . منها :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل ! . . .

استجاد شرّاح العرب هذه الشطرة لما فيها من كثير المعاني ، فقالوا : إن امير الشعراء قد وقف ، واستوقف ، وبكى ، واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في هذا القليل من الكلام . على ان في هذه الشطرة ، عدا المعاني التي ذكروها ، سحرًا سريًا غامضًا لا نحاول شرحه . ومن هذا القبيل :

الا عِم صباحًا ، ايها الطلل البالي . . .

اما البيت الذي لا يُدانى في الصفاء فهوَ :

تمتع من شميم عَرار نجدٍ ! فما بعد العشيّة من عَرار ! . . .

وهناك ، في اواخر العصر الجاهلي ، نثر هو الشعر بعينه . نثر يفاجئك بأسراره ، ويُدخلك في غموضه ، منذ اول حرف من حروفه ، وفي اول جملة من جمله ؛ فيخلُق من حولك جوًا غريبًا تتناسى فيه الالفاظ ومعانيها ، وتستسلم لموسيقاه ، فاذا انت في حالة شعرية شاملة تسمع بها الايقاع السحري المتواصل يرنُّ في صدرك ، وينحدر هادئًا في اعماق نفسك وليس ثمّت ما يعكر هذا الصفاء من جمل « نثرية » ، وتخلّصات بليدة ، وانتقالات تُثقل الشعر وتبهظه .

***

ولا يسبق الى الوهم أن هذه الدقائق المختلفة في القصيدة من الفاظ ، وجُمل ، ووحدة ، وموسيقى ، يفكر الشاعر في كل واحدة منها على حدة فيقول : هذي تكون كذا ، وهذي كذا . لا . انه يُدركها جملة ويتدبرها جملة . وقد يُخل العقل والخيال بعضها فتنتبه النفس الباطنة الى هذا الخلل فتجتهد في اصلاحه حتى يأتي النشيد خالصًا كاملًا كما بدا لها في رؤياها . وقد لا يُطيعها العقل فتظلّ بعضُ الرواسب والنقائص في صُلب الابيات ، كما قد يبقى التُراب في صُلب الذهب .

هذا ما أردنا ان نقول . نجمله فيما يلي :

الشعر والنثر شيئان مختلفان مستقلان الواحد عن الآخر . الشعر مصدره النفس

الباطنة . والنثر مصدره قوى النفس الواعية ، من فكر ، وارادة ، وعاطفة ، وخيال.

فالخطابة ليست بشعر.

والسياسة ليست بشعر.

والفلسفة ، والحكمة ، والمثل السائر ، ليست بشعر.

والمقالات المنظومة في الجرائد ليست بشعر.

والاستجداء بالمدح والرثاء ، والغزل الاصطناعي ، والنسيب والتشبيب ، والمحاولات الصبيانية البهلوانية في نظم التواريخ والالغاز ، وغير ذلك ، ليست بشعر.

تنزّه الشعر عن كل غاية مادية تعليمية.

الشعر حالة تكون بها النفس فوق حالتها العادية ، تشعر بسموها الى الملأ الاعلى فتحاول « تجسيد » هذا الشعور بابيات او قصيدة يبدو من خلالها العالمُ الاسمى فتهتزّ لها النفوس – لا العقول – وتذهل بها وترتفع من عالم المادة الى عالم الروح.

قد حان ان ينعتق الشعر العربي من قيوده ، قد آن ان يُنفى الى موطنه ، فيُغنّي ، في صلاته الالهية ، الحُبَّ والجمال.

M.B.